الحب LOVE

١ – لماذا نحب ؟

الحب باعتراف جميع الناس أمتع صور التجارب الإنسانية جميعاً ، ومع ذلك فمن الغريب أن يعنى عدد قليل جداً من المفكرين ببحث نشـــأته ونموه . وما أكثر ألوان الأدب التى تحدثت عن الحب فى كل لغة وبكل أسلوب ، من أناشيد ، وتمثيليات ، وقصص ، وشعر يزخر بالعاطفة ، ومع ذلك ما أقل المباحث العلمية وما أندر الجهود التى بذلت لفحص هذه المسألة العجيبة فحصاً موضوعياً ، ومعرفة أصلها فى الطبيعة ، والكشف عن أسباب نمو الحب العجيب من اندماج البروتوزوا البسيط إلى إخلاص دانتى ، وهيام بترارك ، ووفاء هلويز لأبيلارد .

نعم لا نزاع فى اشتياق الرجال إلى النساء ، وفى أن الحب « الذى يحرك الشمس وغيرها من الكواكب » يتسامى بالنفس إلى ضرب من الرفعة أعلى من غايات الحياة . ولكن لم كان ذلك ؟ لقد أعلن الشعر وجهة نظره فذهب إلى أن الحب ينبع منذ الأزل من قلب البشر . ولكن أين يوجد الينبوع الخفى لمـــاء الحب ؟ لماذا يهتاج الفتى عند رؤية خصلات الشعر المتهدلة فوق الحاجب ؟ أو عندما تلمس أصابع المرأة ذراعه ؟ أيكون ذلك لأن الفتاة جميلة ؟ ولكن ألا يخلق حبه جمالها ، كما يخلق جمالها حبه ؟ ولماذا يحب ؟

ولست تجد فى أمور الإنسان أغرب من إقبال الرجال – مع ما فى ذلك من خوف – على مطاردة النساء ، اللهم إلا أن يكون استعداد النساء – وهذا من جانبهن رزانة – لقبول المطاردة . ولست تجد فى سلوك الإنسان أثبت من نظرة الرجل الفاحصة التى يرمى بها المرأة فى كل لحظة من النهار . تأمل هذا

الحيوان المخاتل وهو يختلس النظر إلى فريسته زاعماً أنه يقرأ فى الصحيفة . استمع إلى حديثه وكيف يدور به حول صيده الأزلى . تخيل ما يتخيله فى خياله وكيف يرفرف حائماً حول هذه الشعلة المغناطيسية . فلماذا ؟ وكيف حدث ذلك ؟ وما جذور هذه الرغبة العميقة ، والمراحل التى اجتازتها حتى بلغت ما هى عليه من سمو وجنون ؟

فلنجازف بالبحث عن إجابات لهذه الأسئلة التى لا تخطر أبداً على بال المحبين . ولنضم أطراف هذا العلم بقدر ما نستطيع راجعين إلى ستندال ، وإليس Ellis ومول Moll ، وبولش Bölsche ، وديجور مون De Gourmont ، وفرويد ، وستانلى هول ، لنرى أيمكن أن نركب صورة فيها نظرة شاملة تكشف عن وظيفة الحب ومعناه . ولنتتبع بقدر الطاقة الطريق الذى يسير الحب فيه .

٢ ــ من الناحية البيولوجية

كما تدور حياة الفرد بالتبادل بين الجوع والحب ، كذلك الحياة فى مجموعها تدور على التغذى والتناسل باعتبارهما المركزين الكبيرين فى فلك الحياة . فالتغذى سبيل إلى التناسل ، والتناسل طريق إلى التغذى . فنحن نأكل كى نعيش ، وننضج ، ونحقق أنفسنا عن طريق الأبوة . وبالتناسل تنفصل من جسدنا الصائر إلى الموت حياة جديدة فيها القوة على التغذى والنمو من جديد ، ولعلها تبلغ فى المستقبل هيئة أبدع مما كانت عليه من قبل .

ومن الواضح أن النمو فى أبسط الخلايا هو الدافع إلى الانقسام ، الذى يعد أحط أنواع التناسل . ذلك أن جسم الخلية ينمو أسرع من غشائها الذى تتغذى من خلاله . ولكى تحتفظ الخلية بالتناسب بين جسمها المتزايد وغشائها تنقسم قسمين ، بحيث يتكافأ الغشاء مع الجسم . وإذا كنا فى التفسير العلمى نلجأ إلى افتراض نظرية من النظريات فهذا الانقسام نفسه من الوقائع التى لاتحتاج إلى تفسير . فالبكتريا ــ وهى أصغر الكائنات الحية المعروفة ــ تتكاثر بالانقسام ، ثم تكرر الانقسام إلى الحد الذى يتعب الذهن من حسابه . وتنفصل

عناصر جسم الأميبا المركزى ، أو النواة ، انفصالا غريباً إلى نواتين ، ثم تنقسم الخلية كلها وتكون أميبتين جديدتين . فهذه أبوة ، ولكن تمايز الجنسين يوجد بعد ، وأكبر الظن لا يوجد حب .

مثل هذا الانقسام للكائن الحى قسمين هو جوهر حيلة الطبيعة للاستمرار فى الحياة ، حتى فى الحيوان العاقل Homo sapiens . ومع أن الطبيعة تتطور بهذه الصيغة إلى آلاف من الصور المعقدة إلا أنها لا تهجرها أبداً . ويسود هذا التوالد عن طريق الانقسام البروتوزوا (أى الحيوانات ذات الخلية الواحدة) . فالهيدرا[1] Hydra الصغيرة تبرعم من ساق هيدرا أكبر ، وتنمو بالتغذى من حياة أبيها ، حتى إذا تم نضوجها برزت للبحث عن الغذاء فتنافس الكائن نفسه الذى برعمت منه . وأخيراً تنفصل فى حرية ، وتلتمس مكاناً آخر ، وتهيء لنفسها معيشتها .

وفى بعض الأحيان تبقى خلايا البروتوزون المنقسمة كالحال فى بعض الفطريات Volvox مستقرة فى قالب هلامى وتكون « مستعمرة colony » . وعندئذ يظهر تميز غريب فى الوظيفة ، إذ تتخصص الخلايا الخارجية بالتغذى ، والداخلية بالتناسل . وتصبح المستعمرة كائناً اجتماعياً تعتمد أجزاؤه بعضها على بعض وتتعاون . فمنذ بداية مظهر الحياة ، تقدم الحياة لنا مثالا عن « انعزال جرثومة البلازما » ذلك الانعزال الذى أقام فايسمان Weismann على أساسه النظرية السائدة الخاصة بالوراثة فى الإنسان .

ولكن مع أن الانقسام عام إلا أنه لا يكفى ، إذ يأتى وقت بعد عدة أجيال يبدو فيه أن البروتوزوا التى تكرر انقسامها تفقد الطاقة اللازمة لتكوين كائنات جديدة . وهنا تظهر ظاهرة جديدة ، إذ تتحد اثنتان ضعيفتان من البروتوزوا ، وتصب كل منهما من نواتها تياراً من البروتوبلازما ينفذ إلى جسم الأخرى . ثم

---

(١) اسمه الشجاع – بالعربية (قاموس شرف) وهو ثعبان مائى متعدد الرءوس ، إذا قطعت إحداها نمت أخرى . أو هو جنس من الديدان المائية التى تتكاثر بالانقسام . وفى حياة الحيوان للدميرى : الشجاع الحية العظيمة ..... وتزعم العرب أن الرجل إذا طال جوعه يعرض له فى البطن حية يسمونها الشجاع (المترجم) .

تنفصلان، ويظهر مع الغرابة أنهما قد قويتا بهذا « التزاوج المجدد للشباب » ، إذ تنقسم كل منهما بقوة فطرية ، ويحقق الانقسام لعدة أجيال مرة أخرى أغراض استمرار الحياة . فالشأن فى البروتوزوا فى هذه الحالة شبيه بأنفسنا الإنسانية وجماعاتنا ، إذ يقوى المرء عندما يتزوج ، ويتجدد شـــباب الأجناس عندما تختلط .

وعلى ما فى هذا الاتحاد البسيط من دلالة فهو لا يشبه ذلك التزاوج بين الأفراد المختلفة ، وهو أصل زهرة الحب . أيمكن أن نجد مثيلا لذلك فى الحيوانات الدنيئة ؟ نعم ، نقترب من ذلك فى البندورينا Pandorina ، وهى مستعمرة بروتوزوية مكونة من ستين خلية ، وتنقسم كل منها لا إلى خليتين مستقلتين ، بل إلى أجزاء متناهية الصغر أو إلى « خلايا جرثومية Spores » كلها متشابهة فيما يبدو ، ولا ينشأ كائن جديد إلا باتحاد جرثومتين . ولننتقل إلى مستعمرة بروتوزوية أخرى هى الإيدورينا Eudorina فنجد الظاهرة نفسها ؛ إذ تنقسم كل خلية إلى جراثيم مختلفة ، بعضها كبير وساكن ، وبعضها صغير ونشط ، ولا يتكون كائن جديد إلا عندما تنفذ جرثومة صغيرة فى داخل جرثومة كبيرة . ففى الإيدورينا تبدأ الطبيعة فى اكتشاف الجنسين .

وهنا نجد أن الطبيعة تتردد بعض الوقت ؛ ففى بعض الفطريات نرى طريقة التناسل القديمة تتبادل بغرابة مع الطريقة الجديدة . ففى الجيل الأول تتكاثر خلايا المستعمرة بالانقسام المعروف ، ولكن خلايا الجيل الثانى التى حدثت بالانقسام ، تتكاثر كالإيدورينا إلى جراثيم غير متشابهة ، ويجب أن تتحد جرثومتان لتكوين خلايا الجيل الثالث . وهكذا لا يمكن أن يستتب أمر الأشياء الجديدة إلا إذا ألقت بنفسها فى أحضان القديم . . . وهذا درس يتعلمه الشباب بعد أن يولى الشباب ! !

وبعض أعضاء الجسم فى الكائنات الأكثر تعقيداً ، كأعضاء التذكير والتأنيث فى النبات تتخصص لإنتاج الجراثيم ، فيتميز نوعان من الجراثيم تميزاً كبيراً ويصبح كل نوع منهما فى المراحل المتأخرة من تطور الحياة البويضة ova والنطفة sperm . ولكن هذين العنصرين المتضادين لا يزالان فى كثير من الأنواع يحدثان

فى الجسم نفسه بوساطة الأب (أو الأم)[1] فقط . فدودة الأرض مثلا تفرز فى فلقة من فلقها بويضات ، وفى فلقة أخرى فى موسم آخر نطفا . والحال كذلك فى المحار والهلاميات الأخرى ، وبعض ذوات الأغشية ، وسمك الفرخ perch ، بل الرنجة herring المعروفة . ولما كانت الطبيعة قد ترددت فى التمييز بين العناصر المولدة ، فقد ترددت كذلك قبل التمييز بين الذكر والأنثى فى الكائنات التى تولدهما .

ويظهر أبسط صور التمييز المعروفة فى السنجام syngame — وهو طفيلى يعيش فى داخل الطيور . وهنا نجد كائناً كبيراً يبدو أنه أنثى ، أى يفرز بويضة . ثم كائنا أصغر منه كثيراً يعيش متصلا على الدوام بجانب الأنثى ، ولا يعطى بسبب صغر حجمه أى فكرة عن سيطرة الذكر . ويشبه هذا الكائن الصغير الذى يفرز النطفة طفيلياً يعيش على طفيلى أكبر منه ، أو يشبه عضواً فى كائن . ولن يشك أحد فى أنه زوج الأنثى .

وانظر كذلك إلى دودة البحر المسماة بونيليا bonellia ، ويبلغ طول أنثى هذا النوع نصف قدم ، وهى عريضة إلى حدما ، أما الذكر فهو شحمة ضئيلة يبلغ طولها جزءاً من ستة عشر جزءاً من البوصة ، أى إنه أصغر مائة مرة من أنثاه . وتعول كل أنثى نحو عشرين ذكراً من هذه الذكور الضئيلة ، التى تنفذ من داخل مجرى الهضم فى الأنثى إلى جسمها ، حيث تلتقى بالبويضات الموجودة داخلها وتلقحها . وأنثى الحشرات تكاد تكون دائماً أكبر وأقوى من الذكر . فأنثى الفراشة أطول من الذكر خمس عشرة مرة وتزن عشرات أضعاف وزنه . وفى بعض أنواع الحشرات يبلغ الذكر من الصغر حداً يكون فيه « أشبه بالنملة التى تدب على ظهر الخوخة »[2] . ولا يتفوق الذكر إلا فى الطيور والثدييات ، وهنا نجد أن قوته ترجع إلى أن الأنثى بعد اضطلاعها بمعظم أعباء التناسل تغلب جسمانياً على أمرها فى الحرب الجنسية الأزلية .

---

(١) فى الأصل parent ، وهى فى الإنجليزية تدل على أى الوالدين ، لا الأب فقط أو الأم فقط (المترجم) .

(٢) Gourmont, R. de, The Natural Philosophy of Love.

ويبلغ هذا الاعتماد الذى نراه فى الذكر وهو أصغر الجنسين على الأنثى ذروته فى تضحية الذكر بنفسه عند عملية التلقيح . فى كثير من الأنواع تأكل الأنثى الذكر بعد الاتصال الجنسى مباشرة . ويعيش ذكر العنكبوت من فصيلة إبيروس Epirus بعيداً عن الأنثى طلباً للسلامة إلى أن يصاب بنوع من القلق . وعندئذ يقبل فى حياء كأنه دانتى يقترب من بياتريس ويتصل بالنسيج الخارجى للأنثى ، ويبنى لنفسه بعناية طريقاً للانسحاب والخروج ، ثم يتقدم بحذر . والغالب أن الأنثى تلتهمه فى الحال دون أن تسمح لهذا المسكين بمعرفة أى شىء عن لذة الحب . ولعلها تظنه من الأعداء ، وقد تكون ممن يؤثر الطعام على الغرام . أما إذا سادها مزاج السفاد فإنها تمارس شعائر الحياء ، فتتراجع فى خفر مع أنها أكبر وأقوى من الذكر ، وتنزل خيطاً من نسيج بيتها وترفع خيطاً آخر ، على حين يتبعها الذكر الهائج ، وأخيراً تستسلم لقبضة الذكر وتهيىء له وهم السيطرة اللذيذ . ويبلغ انفعالهما فى هذه المرحلة مبلغ الرومانتيكية والسمو ، فيربت أحدهما برقة على صاحبه بملامسة peelers ، ويفصحان عن رغبتهما برشاقة . ولا يكاد ينتهى التسافد حتى تنقض الأنثى على الذكر وتلتهمه بكل ما فى الحب الكامل من سخرية . وقد يكون الذكر فى بعض الأحيان يقظاً إلى الحد الذى يجعله يهرب من قبضتها المهلكة ، فينزلق متراجعاً على خيطه ناجياً بحياته العزيزة . ويصبح بعد ذلك فيلسوفاً ، حتى ينتابه القلق مرة أخرى .

ويقول فابر Fabre إن أنثى الجراد mantis تأكل عشاقها بمثل هذه الوحشية مع شراهة أعظم . وترفض الحشرات الأخرى اقتراب الذكر منها بعد تلقيحها ، ولكن أنثى الجراد تسمح لاثنين إلى سبعة من الذكور وتقبل مغازلتهم ، ثم تأكلهم الواحد بعد الآخر فى وقت فراغها . وفى كثير من الأحوال لا تستطيع الأنثى أن تصبر فى انتظار وجبتها ، فتدير رأسها وتأكل الجزء الأعلى من الذكر حين يكون مشغولا بتأدية مهمته الجنسية . ويروى بوارى Poiret حالة أنثى أطاحت برأس الذكر بمجرد ظهوره ، ولكن المغرم المقطوع رأسه مضى فى أداء وظيفة التناسل وكأن شيئاً لم يحدث له ، وكأن الرأس لا قيمة له فى الصلة الجنسية . وقطع جاك لوب Jacque Loeb بطن الجاماروس gammarus

وهو ذكر من القشريات حين كان يسافد ، ولكنه استمر فى عمليته دون اضطراب ، ومن الواضح أن سائر قواه الحسية اتجهت وجهة أخرى . وفى ذلك يقول لوب : « الواقع إلا إذا كانت ذاكرتى تخدعنى أن هذه الذكور المنزوعة بطونها على استعداد إذا أبعدت عن الإناث أن تتصل بغيرها متى وجدتها »(١) .

وإنا لنعجب حين ننظر إلى تبعية دور الذكر فى الأنواع الدنيئة ، أيمثل ذلك ضرباً من التخصص تطور إليه أخيراً بالطبيعة عن نوع من الكائنات مثل دودة الأرض ، حيث يعيش كلا الجنسين فى جسم واحد . وكل ما كان لازماً لظهور الجنس هو تباين يحدث لبعض الكائنات التى مع تولدها من أنواع خنثى bisexual إلا أنها تصبح مع ذلك متخصصة الجنس unisexual ، أى قادرة على إنجاب نوع واحد فقط من الأعضاء التناسلية .

ولكن ما الذى أعان على ظهور هذا التباين ؟ وما فائدة هذا الانفصال الجديد فى الحياة إلى أنثى وذكر ؟ لا يمكن أن يكون ذلك لأن الذكر الجديد لا غنى للأنثى عنه ، فالطبيعة والتجربة تشكان فى ذلك . فهناك حالات كثيرة تستطيع الأنثى ، حتى فى الأنواع التى تم فيها انفصال الجنسين ، أن تنجب فيما يبدو بغير معونة الذكر . مثال ذلك أن بق النبات المسمى أفيس aphis يتسافد الذكر والأنثى عادة وقت سقوط الأوراق ، وتضع الأنثى « بيضة شتوية » كبيرة تعيش حتى الربيع ، على حين يموت سائر النوع . وتفقس هذه البيضة الكبيرة فى الربيع إناثاً بغير أجنحة ، وهى ، مع أنها لم تر أى ذكر من جنسها ، إلا أنها تنجب خلفاً كلها من الإناث حتى نهاية الصيف . ثم تظهر فجأة بين اليرقات ذكور ، ينضج بعضها ، وتلقح إناث جيلها التى تضع بيضات شتوية من جديد .

لعل هذه الحالات من التوالد بغير تلقيح parthenogenesis ترجع (كما يظن ترمبلى Trembley) إلى انتقال بعض ما اختزنته الإناث الملقحة فى موسم سقوط الأوراق إلى البيض الملقح من الأجيال التالية غير الملقحة ، وليست هذه النظرية مؤكدة . أما إمكان الاستغناء عن الذكر بالفعل فقد ثبت بالتجربة

---

(١) Comparative Physiology of the Brain, p. 231.

فى كثير من المعامل . فقد شجع جاك لوب البيض غير الملقح لأصداف البحر sea-urchins ، ونجمة البحر starfish على الفقس والنمو بأن يضع البيض فى الكحول والأثير والكلوروفورم والاستركنين والسكر والأملاح والحوامض والقلويات ، فكانت هذه الأصناف المتعددة بديلا عن الذكر المفروض أنه لا غنى عنه .

فمن الواضح أن ظهور الذكر فى الطبيعة لا يرجع إلى الحاجة إلى التلقيح . فإلى أى شىء يرجع إذن؟ أكبر الظن أنه يرجع إلى ضرورة التهجين cross-fertilisation ذلك أن انفصال الجنسين جعل اتحاد الصفات والقوى الوراثية فى الذرية ممكناً ، وهى صفات وقوى تنحدر عن أصلين متميزين من الأسلاف . وتبلغ مزايا هذه الوراثة المزدوجة من الوضوح ما يجعلنا نتوقع ظهور ترتيب معين يمنع التوالد الذاتى بغير لقاح . وهذا هو الواقع : فالأزهار (وهى الأعضاء التناسلية فى النبات) مركبة بطريقة تجعل نفاذ عضو التذكير فى عضو التأنيث من ذلك النبات مستحيلا . حتى القوقعة التى تضم فى جسمها كلا الجنسين ، نجد أن أعضاءها مرتبة ترتيباً لا يسمح باللقاح الذاتى . وهكذا تدبر الطبيعة حتى نبلغ نوع الإنسان فنجد أن العوامل الاجتماعية والنفسية قد تحالفت على تحريم الزواج بين الأخ وأخته ، وتوجد محرمات taboos قوية تمنع الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة . وليس تحريم الزواج من الأهل incest ، وقوانين الزواج من خارج القبيلة ، إلا أسمى صورة لذلك الاتجاه نفسه نحو التهجين ، وهو المسئول عن التمايز بين الجنسين .

والآن وقد انقسمت الكائنات إلى جنسين ، فعلينا أن نواجه المشكلة التالية وهى تعاونهما بالتقاء أعضاء التناسل . وهنا يذهلنا إسراف الطبيعة ؛ وإسرافها أعظم فى النباتات المزهرة ، إذ هناك آلاف من الأنواع تعتمد على الرياح فى نقل بذور التلقيح من نبات إلى آخر ، ويفوح الهواء برائحة حبوب اللقاح التى تكون ذراتها أريج الزهر ، حتى لتشغل ملايين من هذه الذرات مسافة تبلغ خمس ياردات . وتحمل أنثى سمك الدخس sturgeon فى جسمها ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ بيضة (أى ٩٠٠ رطل) ، وهذا يكفى لعمل ٦٫٠٠٠ شطيرة (ساندوتش) من الكافيار . أما

فى سمك الرنجة فالأمر أشد إسرافاً، إذ تتجمع مئات الآلاف من الإناث والذكور فى مكان واحد حتى ليخيل للمرء أنها قطعة كبيرة من الجلاتين ، وتفرز البيض والمنى milt بكثرة شديدة حتى يصبح لون ماء البحر كاللبن . ثم يأتى الصيادون فيمسكون بهؤلاء المغرمين جملة ، ويسحبونهم بالآلاف فى شباكهم . ومع ذلك يلقح بعض البيض بوساطة المنى ، أما الطبيعة المهملة التى تحتقر من شأن الفرد فإنها تعزى نفسها بالاحتفاظ بالنوع .

ونحن نجد هذا الإسراف نفسه فى نوعنا الإنسانى ، ولو أنه خفى ؛ إذ من بين ٧٢٫٠٠٠ بيضة تفرزها الأنثى ، وبلايين النطف التى يفرزها الذكر ، لا يستغل فى التناسل إلا قلة قليلة (فى أيامنا هذه واحدة أو اثنتان فقط) ويعتقد بولش Bolsche أن هذه الوفرة ليست مجرد نفاية ، إذ أنها تقدم المادة التى منها ينتقى الانتقاء الطبيعى البيض والمنى الضعيف وينتخب الأقوى ؛ وقد يكون هذا صحيحاً . ولكننا نشك فى أن الأستاذ بولش قد أعلى من شأن الطبيعة أكثر مما تستحق ، فهى ليست من الذكاء بمقدار ما يظن . ولا ريب فى أننا قد ورثنا الغباء الذى لا ينضب له معين من أمنا الطبيعة .

ويصحح هذا الإسراف فى الحيوانات الراقية ما تتخذه الطبيعة من احتياط فى التركيب لهداية البيضة والنطفة واتحادهما من جهة ، وما يتخذه الآباء من عناية نامية من جهة أخرى . مثال ذلك أن نجمة البحر star-fish تحتضن بيضها الملقح بيديها ، وكذلك صغارها بعد فقسها . ويقود ذكر الزقزوق (نوع من السمك) أنثاه إلى حفرته لتضع البيض ، ثم تذهب إلى حالها ويعنى الذكر بالنسل بنفسه ، كما يفعل الزوج فى العصر الحديث . وتضع أنثى فرس البحر من النوع المسمى كامبوس هدسونيوس campus hudsonius بيضها فى جراب على بدن الذكر الذى يعنى بالبيض إلى أن يفقس . ويبلغ المتوسط السنوى لما تضعه آلاف الأسماك التى تكتفى بوضع البيض ثم تتركه حول مليون لكل زوج . وفى مائتى النوع التى تظهر شيئاً من عناية الأبوة فلا يبلغ المتوسط إلا ٥٦ بيضة للزوج فى العام . وتضع الطيور التى لا تبنى لها عشاً اثنتى عشرة بيضة فى العام . أما التى تبنى عشاً خشناً فيبلغ ما تضعه ثمانى بيضات ، والتى

تبنى عشها بعناية خمساً (١) . وهكذا نجد أن الحب الأبوى يحل شيئاً فشيئاً محل إسراف الطبيعة ويعوضها . وفى الثدييات التى تختص بعناية الأمومة ينجب الزوج ثلاثة صغار فى العام ، وتقل هذه النسبة فى الأنواع الراقية . ثم تنمو الأسرة ببطء كأنها رحم خارجى يعنى بالنسل خلال فترة أطول من الزمن . وكلما طال زمن البلوغ ارتفعت الحضارة التى تعتمد إلى حد كبير على فترة التربية إلى مستويات أعلى مما كانت عليه من قبل .

والآن ما موقف مشكلة الحب من وجهة نظر هذه الزاوية البيولوجية السريعة ؟ يجيب أرستوفانس ساخراً فى محاورة المأدبة لأفلاطون (١٨٩ — ١٩٢) قائلا : « كان الجنسان فى الزمن القديم واحداً ، ولكن الإله — بسبب خبث البشر ... قطع الإنسان نصفين ، كاللفت الذى يشق نصفين للتخليل ، أو كما نشق البيضة بشعرة . . . وكل منا حين انفصل لم يكن إلا نصف إنسان... يتطلع على الدوام إلى نصفه الآخر؛ فالرغبة فى الكل والسعى إلى تحقيقه يسمى حباً ». وهذا لعمرى تعريف شريف ، يحثنا على تأويل هذه الأسطورة تأويلا علمياً ، فنقول : كان كلا الجنسين فى قديم الزمان فى بدن واحد كما هى الحال إلى الآن فى دودة الأرض ، ثم فصلتهما الطبيعة إلى كائنين . ولذلك يحس الآن كل شطر منهما وهو منفصل بأنه ليس إلا نصفاً ، فيشتاق إلى الاتحاد والتكامل .

ولكن الجواب عن سؤالنا « ما الحب » يعد جواباً غامضاً . إذ يفترض ذلك وجود وعى فلسفى عال فى أحط الخلايا الجرثومية البروتوزوية . وأكبر الظن أن وظيفة الذكر حين تخصصت أول مرة فى كائن منفصل ، لم يسع إلا قلة قليلة من تلك الذكور الأولية إلى الاتحاد « بأنصافها الحلوة » . وتلك الذكور التى سعت ووفقت فى الاتصال بنصفها الآخر ، هى وحدها التى أصبحت آباء الجيل التالى . وهكذا كان المحبون فى كل جيل — أى الأفراد الذين حققوا الكمال بالاندماج فيمن يكملهم — هم الذين نقلوا شوقهم إلى الاتحاد فى مجرى الحياة . أما الذين فقدوا الشعور بهذه النزعة أو شعروا بها شعوراً ضعيفاً ، فقد انقضت

---

(١) Sutherland, A., Origin and Development of the Moral Instincts, Vol. I, pp. 4-5.

حياتهم بغير نسل أو بنسل قليل ، وذهب فتورهم بموتهم . من أجل ذلك نمو الشوق الشديد مع كل جيل ، فلا غرابة أن يصبح هو العاطفة الغالبة ، وهى أقوى من الموت . . . ذلك الموت الذى تخدعه هذه العاطفة فى صبر بالاستمرار عن طريق التبدل . ولعل . . . لعل هذا هو الطريق الذى جاء منه الحب.

٣ ـ الأساس الفسيولوجى

لقد تحدثنا عن الحب بما فيه الكفاية فى تطوره خلال سلسلة الحياة . فلنتأمل الآن نموه فى الفرد ، أو كما قال أرسطو : إذا أردت أن تفهم حقيقة شىء ما فعليك أن تبحث نشأته وتطوره .

أيوجد فى الطفل ما يضاهى عاطفة الحب التى تظهر فيما بعد ؟ يجيب فرويد فى ثقة عن هذا السؤال مثبتاً إياه ، وشيد قصوراً مدهشة من علم النفس الطبى أقامها على الاحتمالات الشبقية لمص الأصابع ورضع الثدى. ولكننا حين نفصل الوقائع عن النظريات نجد الوقائع ضئيلة جداً . فهذا واطسن وأعوانه وضعوا مئات عدة من الأطفال تحت الرقابة فترة طويلة من الزمن ، فلم يجدوا عندهم أى سلوك جنسى من أى نوع[1] .

ومع ذلك فلا يلبث الطفل أن يظهر وعياً بالجنس الآخر ، فيبدو عنده ضرب من الفضول التشريحى يشجعه عليه الإخفاء والمراوغة . ويصبح كل جنس شيئاً غامضاً بالنسبة إلى الجنس الآخر ، ويثير فيه رد فعل عبارة عن مزيج من الخجل والجاذبية . ولا يكاد يوجد بين الجنسين الصغيرين أكثر من ذلك . فإذا حصل الحب قبل البلوغ فالأشبه أن يكون فى هيئة « عقدة أوديب » ، أى يتعلق الصبى بأمه ، والفتاة بأبيها . ولكن ليس ما بيّنه فرويد هو الشىء الفظيع ، فعقدة أوديب ليست لا شعورية ولا شاذة ، بل هى سبيل الطبيعة إلى إعداد الطفل لحب سليم . أما إذا كانت العلاقة على غير تلك الصورة ، أى حين

---

(١) Watson, J.B, Behavior, p. 262.

يتعلق الابن عاطفياً بأبيه ، أو تتعلق البنت بأمها ، فعندئذ يكون من المعقول أن ينزعج علماء الطب النفسى .

وعند البلوغ يغنى الحب أنشودته الواضحة . والمعنى الحرفى للبلوغ(١) puberty يدل على السن التى ينبت فيها الشعر على جلد الذكر ، وبخاصة شعر الصدر الذى يتيه به فى توحش ، وكذلك شعر الوجه والذقن الذى ينتزعه فى صبر أيوب . ويبدو أن نوع الشعر وغزارته ينبتان ويقعان (فى الظروف العادية) مع دورة القوة الجنسية ، ويبلغان الأوج عند ازدهار الحيوية . هذا الشعر الذى ينبت فجأة إلى جانب خشونة الصوت من « الصفات الجنسية الثانوية » التى تصيب الذكر عند البلوغ . أما الفتاة النضرة فإن الطبيعة تجعلها لينة الأطراف ثقيلة الأرداف حتى تفتن العين ، عريضة الحوض لتيسير الحمل ، بارزة النهدين لإرضاع الطفل .

فما الذى يسبب هذه الصفات الثانوية ؟ لا أحد يدرى . ولكن الأستاذ ستارلنج Starling اكتشف ما يؤيد نظريته التى تذهب إلى أن الخلايا التناسلية عند البلوغ لا تشرع فى إفراز البويضة والمنى فقط ، بل كذلك بعض « الهرمونات » التى تنفذ إلى الدم وتكون علة حدوث تغيير جسمانى ونفسانى . ولا يوهب الجسم فقط بقوى جديدة ، بل يتأثر العقل والخلق بألوان شتى من التأثر . وفى ذلك يقول رومان رولان : « تمر بالرجل فترات من العمل يحدث فيها تغيير عضوى صامت » — أو بالمرأة . ومرحلة البلوغ هى أهم هذه المراحل .

ثم تغمر مشاعر جديدة الجسم والنفس . ويسوق حب الاستطلاع العقل إلى الأمام ، ويرده الحياء إلى الوراء . ويصاب الشاب بالارتباك فى حضرة الجنس الآخر ، وتتعلم الفتاة كيف يحمر وجهها خجلا . وقد يصبح الطفل فجأة ذكياً بعد أن كان غبياً ، أو يصبح عنيداً بلا سبب معقول بعد أن كان مطيعاً . وتنتاب البالغ نوبات من النظر فى باطن نفسه ، وأحوال غريبة من التأمل

---

(١) هذا من جملة معانى اللفظة فى الإنجليزية . أما فى العربية فالبلوغ من بلغ سن الرشد ، ويقال أيضاً الاحتلام والحلم والمراهقة ، وبعضها يدل على الإدراك العقل ، وبعضها يشير إلى الحالة الجنسية المعروفة (المترجم) .

والشرود . ويتفتح الخيال وتظهر دولة الشعر ، ويطمع جميع المثقفين إذا بلغوا هذه السن فى التأليف ويحلمون بشهرة خالدة . وتسرع كل قوة عقلية فى النمو ، ويهجم العقل بأسئلة جديدة على الكون . وإذا استمر الشاب سائراً فى طريق التفكير أصبح عالماً أو فيلسوفاً ، أما إذا هجره سريعاً فقد يصبح رجلا ناجحاً فى الحياة ويرتقى أعلى المناصب .

وفى هذه الفترة يروى ماء الحب المتدفق جذور الفن للمجتمع والإخلاص له . ذلك أن الحب يتخيل الجمال ، ويبحث عنه ، وقد يبتدعه . والحب يتخيل الخير ، ويسعى إليه ، ويبرز عازماً على تحقيقه . وإذا كان الدين يعرض نفسه فى هذه المرحلة على أنه عقائد إلهية فقد يثير فى نفس الشباب شهوة الجدل ، وتتمزق بذلك أوصال الدين . أما إذا عرض نفسه على أنه يطلب الخير تأثرت به مثالية النفس المتغيرة ، وأصبح الدين جزءاً لا يتجزأ من الشخصية .

جملة القول مرحلة البلوغ أعجب مراحل حياتنا . فهو عصر العقل ، وهو مع ذلك فترة الانفعال ، إذ ينثر العقل والقلب فى كل جانب وابلا من أفكار جديدة ومن عواطف المحبة . ولن تجد العالم يبدو أغرب ومع ذلك أجمل ، وأبعد منالا ومع ذلك أسهل نيلا ، كما يبدو فى هذه السنين التى ينتقل فيها الإنسان من طور إلى طور ، حتى ليشتاق المرء فى كل عمر متأخر إلى الرجوع إليها . سن البلوغ هو ربيع كل قوة ، وزمان البذر لكل حصاد ، وفيها تجد سائر العواطف الشريفة غذاءها . هذه السن هى نهضة الحياة .

ومع ذلك أى قوة داهية هذه التى تسوق الفتى فى خوف نحو الفتاة ، وتجعل الفتيات يتمنعن وهن الراغبات ؟ أى سر غامض يعمل فى جنبات الجسم ليخلق أبهى زهرة فى جميع حياتنا . . . حب الرجل للمرأة ؟

وتأخذ الخلايا الجرثومية فى البدن تهتاج وتتفجر بالحيوية وكأنها قد عقدت العزم على مغالبة كل جهد للاحتفاظ بهذا النشاط الجديد . وكما أن الأصل البيولوجى للحب هو الانتخاب الطبيعى ونمو الغريزة إلى تحقيق الاتحاد ، كذلك أساس الحب الفسيولوجى فى الفرد هو تجمع المادة الجرثومية ، فيهتاج الكائن

بأسره ، لإحساسه بتوقف النمو وقلق الحياة المتوسعة ، ويمتلىء القلب بحزن لذيذ ولكنه ثقيل ، وكأنه قد أدرك أنه ناقص فتعطش إلى أن يكمل نفسه .

وفى ظل هذا الاهتياج يتأثر الشباب بآلاف من المؤثرات كانت تمر به دون أن يشعر بها من قبل ، وتروقه بعض الأصوات ، وتفتنه الموسيقى والغناء إلى أقصى حد ، ويتصف الصوت برخامة جديدة (لعلها بدأت فى نداء الذكر من الحيوانات الدنيئة) ، ويستمتع المحب بسماعه . ويعجب الشباب ببعض الروائح ، بعبير البدن النامى ، وأريج النظافة ، وقوة العطر المنبهة للغريزة ، وهى جميعاً كالخمر التى تسكب فى كأس الحب . وتفتنه كذلك بعض الحركات : إيقاع الرقص ومخاصرته ، وهزة جسم الرياضيين وثقتهم بأنفسهم ، ورشاقة الفتيات وخفتهن . أما المناظر فتفتن الشباب أكثر من أى شىء آخر ، إذ يفيض موسم الحب بالألوان ، ويفضى اللون الأحمر إلى حب الامتلاك . ويتأنق الشباب فى الملبس فى زمان الألفة ، كما ينبت العرف والريش للطير والحيوانات . ويطلى المتوحشون أجسادهم بالنقوش فيشوهون أنفسهم ليلفتوا إليهم الأنظار ويثيروا الحواس . ولا يصبح اللباس وقاية بل زينة ، ومصدراً للوحى ، وباعثاً على التأثير . وتخفق القلوب الرقيقة للشجاعة والقوة ، وتثير رؤية الأجسام البضة رغبة الشباب . فهذه التجارب الجديدة من الروائح والأصوات والملموسات والمناظر ، ومن العطر والغناء والرقص وشتى أنواع الاستعراض ، تشغل أيام الشباب وأفكارهم الحالمة ، وتصبح بواعث لا يمكن صدها إلى الحب .

ثم تجتمع سائر المؤثرات وتظهر فجأة جميع الشروط ، وتنطق حاجات الجنس بلسان جوع البدن والروح . وعندئذ يولد الحب ويشرق فى القلب كما يبزغ النور فى الصباح ثم ينتشر فيملأ الكون نوراً وناراً . وفى ذلك ينشد لوكريتيوس العظيم :

« إيه أيتها الزهرة ، إنك وحدك سيدة طبيعة الأشياء ، ولاشىء يرتفع بغيرك إلى عوالم الحياة المقدسة ، أو يصبح بهياً أو مرحاً . وإنك تملئين جميع القلوب بالحب العميق ، وتسوقين كل قلب إلى أليفه يعملان على استمرار الجنس بالرغبة الحارة ، من خلال سائر الجبال والبحار والأنهار المتدفقة ، وأعشاش الطيور

المورقة ، والسهول المكسوة بالحشائش . إذ ما يكاد الربيع يشرق مع الصباح ، حتى تثب القطعان البرية فوق المراعى الباسمة ، وتعوم فى المياه الجارية ، وقد أسرت قلوبها المباهج الساحرة ، وساقها الحب إلى اتباعك[1] » .

٤ — النمو الروحى

على هذا الأساس الوطيد الطبيعى يقوم ذلك الحب الذى هو روح وشعر ، كما ينشأ إخلاص الأليف لأليفه من شهوة الحياة للاستمرار . ومن هذا الجوع للجسد ينبع أجمل وفاء بين روحين . ومن شهوة الهمجى فى الكهف ينشأ فى النهاية غرام الشعراء . فهذا هو السلم الذى يرتقيه الإنسان .

ويبدو أن البدائيين من البشر لم يعرفوا من الحب إلا الشىء اليسير . إذ ليس فى قاموسهم لفظة تدل عليه ، وإذا تزوجوا لم يفعلوا شيئاً يقرب من الغزل أكثر من الرغبة فى البنين ، والاختلاف بانتظام إلى تناول وجبات الطعام . وفى ذلك يقول لابوك Lubbock (وعلماء الأجناس مغرمون بالبحث فى الأماكن الغريبة) : « يحتفل أهل « يوروبا Yoruba » بالزواج بلا أدنى اكتراث . ولا يفكر الرجل منهم فى اتخاذ زوجة إلا بمقدار ما يفكر فى انتزاع سنبلة من القمح . . . ولا محل للحب على الإطلاق »[2] وكان نيتشة يعتقد أن « الحب الرومانتيكى » من اختراع شعراء الأقاليم troubadours . ولكن لا ريب أن ثمة عنصراً « روحياً » ينمو فى الدافع التناسلى حيثما ظهرت الحضارة . وكان الإغريق يعرفون القصص الغرامى ، ولو أن ذلك كان على طريقتهم الشاذة . وتدل قصص ألف ليلة وليلة العربية على أن الحب لم ينتظر حتى ظهور الأغانى فى العصر الوسيط . غير أن مغالاة الكنيسة فى تقديس العفة ، وإحاطتها المرأة بسحر ما يستعصى على النوال ، كان مما ساعد على ازدهار شعر الغزل . ويقول فى ذلك لاروشفوكو : « الحب بالنسبة إلى روح الحبيب ، كالروح بالنسبة إلى البدن الذى تحييه » . ويقول دى موسيه : « جميع الرجال كذابون وغشاشون

---

(١) On the Nature of Things, Tr. Munro, Book ii, lines 991 f.

(٢) Origin of Civilisation, p. 51.

ونفاجون ومنافقون ومختالون ، وكافة النساء معجبات بأنفسهن ومتصنعات وماكرات . . . إلا شيء واحد مقدس وجليل ، ذلك هو اتحاد هذين الجنسين الناقصين » . ويقف نيتشة يمجد الحب قائلا : « أطهر عبارة سمعتها هي قول القائل : إذا كان الحب صادقاً احتضنت الروح الجسد » .

كيف يمكن تعليل هذا التحول من الرغبة الطبيعية إلى الحب الرومانتيكي؟ ما الذي يجعل الجوع الجنسي يزدهر هذا الازدهار فيصبح ظرفاً ، واهتياج البدن رقة الروح ؟ أيكون ذلك لأن الحضارة مع نموها قد أجلت سن الزواج ، وتركت الجسد في شوق إلى رغبة لم يحققها ، ذلك الشوق الذي انعكس في باطن النفس إلى صورة من الخيال ، وألبس المحبوب ألواناً مثالية أضفتها رغبته التي لم تتحقق؟ إن ما نطلبه ولا نجده ، يصبح أغلى لأننا لم نجده . وسوف نرى أن جمال الشيء في قوة الرغبة إليه . وأن الرغبة حين تضعف ، تقوى إذا أشبعت بالزهد فيها . من أجل ذلك كان الحب أكثر روحانية في شباب الفرد وأوج الحضارة ، لأن الكبت يبلغ ذروته في ذلك الأوان ، ويخفف الشعر ما تشعر به الأجساد من حرمان .

فلنتأمل النمو النفساني للحب ، مهما يكن مصدره . إنه يبدأ في الأغلب بانعطاف الفتاة انعطافاً خاصاً نحو أبيها ، وانعطاف الولد نحو أمه . ثم يتحول ذلك إلى ضرب من التعلق القوي بشخص في مثل سن الحبيب . وتجد في كل حجرة دراسية أطفالا يحبون المعلم المخالف لجنسهم . وكتب جيته قصة مشهورة يصف فيها غرامه بامرأة حطمت قلبه ، حين دعته طفلها . ويبلغ الإبداع الرومانتيكي ذروته في هـــذه الغراميات المؤقتة ، إذ يحرك البدن النامي الخيال فيرى صوراً بديعة ، ولا بأس أن يرفعها إلى مقام الحقيقة ، فيختزن أي شيء يوافقه في ظلال هذا الخيال . وليس للعنصر الجسماني أي مدخل يشعر به الإنسان . وفي ذلك يقول جيته : « إن أول نزعة للحب عند الشباب الصالح تتخذ وجهة روحانية خالصة »(١) .

---

(١) Truth and Fiction, p. 178.

ثم تأتى بعد ذلك مباشرة تلك التجربة اللطيفة التى نسىء تسميتها بقولنا حب « العجل calf. » [1] — ولو أن المرء لا يمل النظر فى جمال ذلك الحيوان الوديع . ويكون مثل ذلك الحب خفياً لا يصرح به ، ولا اسم للمواهب اليسيرة التى تنشأ عنه . والبنات فى هذه المرحلة أكثر شجاعة من الصبيان ، ومع أنهن يفقدن (فى الظاهر) بعض هذه الجرأة حين تتقدم بهن السن الواعية ، فإنهن يحتفظن إلى آخر الأمر بدراية ممتازة فى فنون الحب . ويبدو الصبى خجولا ، ولكن البنت تحتفظ بكيانها وتظل سيدة الموقف . وفى بعض الأحيان يبتعد الصبى عن الطريق حتى يتجنب الفتاة التى يشتاق إليها ، وينفق ساعات طويلة وحيداً فى ظلمة الليل ، أو يهيم على وجهه فى النهار ، يتفكر فى مرارة فى تلك الحركات الطائشة التى صدرت منه أو العبارات السخيفة التى بدرت منه فى حضرة محبوبته. وقد تبلغ هذه الحساسية عند بعض الشباب الذين يستظلون بظل الأمومة ويتعلقون بها مبلغاً يجعلهم يتقيدون بها ، فيظل الشاب عَزَباً إلى آخر عمره . وعندما يشتد ساعد الصبى يغذى فى نفسه روح حب الظهور ، حتى إذا رأى فتاة أحلامه خاطر بحياته فى الألعاب ليضع تحت قدميها إكليلا من الغار . ويولد الشباب فى ميدان الألعاب البدنية ، تلك المصارعات الدامية بين ذكور الحيوان لامتلاك الإناث ، كما يمهد لتلك المنازعات الاقتصادية التى يتنافس فيها الشباب الناضج للحصول على الفاتنات ، والاحتفاظ فيهن بابتسامة الرضا . وهكذا نرى أن الحب يدير عجلة الحياة .

وينتقل الحب من هذه المظاهر المبكرة التى تعقب تمام البلوغ مباشرة إلى مراحل مختلفة تكون سوية إذا عبرت وزالت ، وشاذة إذا دامت . فالانحراف perversion ارتداد atavism إلى صورة قديمة من السلوك كانت، فى الأصل سوية ونافعة ، ثم ظهر ما يفضلها ويسمو عليها . ويتقلب الكائن السليم فى هذه الشروط المبهمة كما تقلب دانتى فى الجحيم ، فهو يجربها ، وتصهره تجربتها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحب البالغ والسليم .

وتظهر فى هذه الآونة أيام الغزل، وهى أبهى أوقات الحياة الإنسانية .

---

(١) يقال فى العربية النعجة بدلا من العجل ، والمقصود اتباع العجل أمه . (المترجم)

وليس معنى ذلك أن الغزل ظل ينتظر حتى سن النضوج ، لأن نصف ألعاب الطفولة هى ألعاب حب ، حتى إن الطفلة فى الخامسة تستطيع أن تغازل ببراعة . ويخدم الغزل أغراضاً حيوية ، فهو يدفع الحب إلى آفاق أرحب ، ويفسح المجال لانتخاب الأفضل ذلك الانتخاب الذى يرفع تدريجاً نوع الحياة . وتمتاز شعائر الغزل عند البالغين بهجوم الذكر للظفر ، وانسحاب الأنثى إغراء ، ولو أننا نجد ضروباً من الاستثناء لهذه القاعدة . ففى غينا الجديدة تغازل الفتيات الرجال ويغدقن عليهم الهدايا ، ولكن هذه العادة البديعة لم تغز بعد بلادنا . وقد نجد فى بعض الأحيان امرأة مثل حنة Anne تغرى بعد روية وبصيرة المستر تانر Tanner فى شباكها . . . على الأقل فى رواية برنارد شو . ولكن الذكر عادة هو الذى يلعب الدور الإيجابى والهجومى ، لأنه بالطبيعة هو المحارب وهو الحيوان المفترس . والمرأة بالنسبة إليه غنيمة يجب أن ينتصر عليها ويمتلكها . فكل غزل مغالبة ، وكل سفاد غلبة .

ويقول ستانلى هول : « من الجنادب ما تبلغ من شدة البأس فى القتال حداً يجعلها تتمكن من المنازلة كالديكة . وتحارب ذكور السمك حتى الموت فى أثناء موسم التوالد وفى مناطق بيض السمك ، وتصبح أسنان ذكور السلمون البالغة حادة وتختلف اختلافاً تاماً عن أسنان الإناث . وقلّ أن تلتقى السحالى فى الربيع دون أن تتقاتل . وتقاتل معظم الطيور فى الربيع فتستعمل المنقار والمخالب والصياصى التى تكون على الأجنحة وتبرز من الأرجل . ويتفق موسم الحرب عند هذه الضروب من الحيوان مع موسم الحب »(١) . وتنقلب الحرب عند الرجال منافسة على التجارة وضرباً من المباهاة . فنحن نتحارب «بالشيكات» لا بالأنياب ، وتختفى مخالبنا وراء آداب التجارة .

والمرأة إذا كانت حكيمة حاربت بالفرار والعفة . والعفة انسحاب وفق خطة موضوعة ، وهى تنشأ من الخوف والطهارة ، وتنمو بالمداهنة والدهاء . وليست العفة من خصائص النوع الإنسانى ، لأننا نجد لها شبيهاً واضحاً وأصلا فى إحجام أنثى الحيوان عن المسافدة فى غير موسم أو فى غير موضع . ولكن

---

(١) Adolescence, vol. II, p. 368.

الإنسان، كما قال بومارشيه، يختلف عن الحيوانات فى أنه يشرب وهو غير ظامىء، ويطأ فى كل موسم. والعفة عند المتحضرين من أبهى مراحل النمو النفسانى للحب. فهى ترتفع إلى مرتبة فذة من العظمة، وقد تقهر فى بعض الأحيان أعمق دوافع النفس. واتبع حكماء المشرعين فى الملايو قديماً طريقة يقضون بها على موجة من الانتحار سادت بين النساء، بأن أصدروا أمراً يحتم أن تحمل جثث المنتحرات عارية فى الشوارع (١).

وكان وليم جيمس يرى أن العفة ليست غريزية بل مكتسبة، فقد اكتشفت المرأة أن البذل يولد الابتذال، ونقلت هذا الاكتشاف إلى بناتها. وذهب ديدرو أبعد من ذلك وأرجع هذه المسألة إلى غيرة الأزواج الذين أدى إحساسهم بالملك إلى فرض العفة على زوجاتهم. وفى كثير من القبائل لا يأتزر إلا المتزوجات فقط، إذ يعتقد أزواجهم (وهم فى ذلك أعقل من خالق «جزيرة بنجوين») (٢) أن ذلك يعين على الاحتفاظ بحقوق الملكية. وعندما حل الشراء محل الأسر، وأصبح ذلك بدعة الزواج الشائعة، ورأى الآباء أن الأبكار أغلى مهوراً، شجعوا — فى فضيلة — على العفة.

وقد نشأت العفة من هذه المنابع المتعددة حتى أصبحت إحدى مفاتن المرأة الداهية. ذلك أن العاهر غير جذابة إلا فترة عابرة للرجال. والتحفظ فى العرض والاقتصاد فى إبراز المفاتن أفضل سلاح فى اصطياد الرجل. ولو أنهم علمونا تشريح الأعضاء التناسلية على قارعة الطريق لأثار ذلك فينا الانتباه، دون أن تتحرك فينا «النوايا». وينجذب الشاب إلى ناعسة الطرف لأنه يشعر دون أن يفكر فى ذلك أن هذا التحفظ البارع يخفى فى المرأة رقة هى أجمل ما فيها. فالعفة، بما تحتفظ به من ثمن، تحث على إبراز قدرة الذكر وشجاعته، وتحركه إلى أعمال عظيمة النتائج وتبعث الطاقة المختزنة وراء المستوى المتوسط المريح الذى

---

(١) Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex, vol. I, p. 24.

(٢) قصة لأناتول فرانس يعرض فيها تاريخ فرنسا متهكماً، وفيها يتصور القسيس أنه يعمد هذه الطيور بدلا من الناس. (المترجم)

نعيش فيه . ومن يدرى إلى أى حد ترجع أعمال الرجال الإنشائية إلى المنافسة الجنسية وحب العرض ، كما هى الحال فى عظمة ألوان الطيور ؟

ولنفرض أن الفتنة سارت فى طريقها ، وتكامل الحب بالأبوة ، واكتملت دائرة الرغبة بانجاب طفل . وأكبر الظن أنه ليس ثمة غريزة نوعية باسم التناسل ، بل ثمة فقط غرائز الصلة الجنسية mating وعناية الآباء بأبنائهم . فالطبيعة تحقق أغراضها بوسائل منحرفة ، والنوع الإنسانى ثمرة عرضية لأعظم ما فيها من لذة . ولن تجد شيئاً أكثر سخرية من هذه الطريقة التى تنشر الطبيعة بها المواليد الحمر بالدماء المتفرعة عن أمهاتهم : وإن كنت فى ريب فاستمع إلى صراخ النساء وصيحات الولاء فى المستشفى . ومع ذلك فما أبرع طريقتها الشيطانية فى تهدئة ثائرة الأم بالنشوة المخدرة ، وقلق الأب بزهو أعمى يجعله يدفع باسماً الأجور الباهظة المفروضة الآن لأولئك الذين يجرأون على استمرار جنسنا الذى ربما لم يكن ضرورياً .

ويتجدد حب الآباء حين يظهر الطفل إلى الوجود ، ولكنه حب يختلف عن تلك الشعلة التى كانت تحترق من قبل . حقاً لقد كانت تلك الشعلة خليقة أن تذبل فى تلك الأيام إلى ذؤابة ضعيفة عند ولادة الطفل ، والطفل نفسه جدير أن ينتزع من قلبى الأبوين بعض العاطفة التى جعلتهما مؤقتاً شخصاً واحداً . فالأم تجنح إلى نسيان الأب فى غمرة عاطفتها الجديدة ، ويميل الأب إذا كانت الأعجوبة الصغيرة بنتاً إلى أن يخلع عليها هيامه الذى كان يضفيه على زوجته . على أن هذا اللهو يفقد آخر الأمر سحره ، وتنشأ روابط جديدة تصل بين الزوجين مرة أخرى .

وبعد فهذا هو الأوان الذى يجعل التآلف بين الزوجين كاملا . ذلك أن تلك الأعوام من الأبوة تزخر بكثير من التجارب والمحن ، وصروف الدهر ، وآلام البدن ، ومخاوف القلب . ويجلب المرض للخيال المتقلب شيئاً من العمق والاعتدال ، ويسير الحب فى ركاب حياة جديدة مصيرها إلى الموت . وحين يشترك الزوجان فى عمل المشروعات ومحاولة تنفيذها ، ويظفران معاً بالنجاح ، ويبتسمان ، يتداخل عقلاهما المتجانس فى شركة روحية قد ترتفع إلى حد

امتزاج الشخصيتين ؛ بل إن وجهيهما قد يتشابهان . ذلك أن مراقبتهما معاً مهد الأطفال ، ورؤيتهما إياهم ينمون ، ومنحهم بعد ذلك شيئاً فشيئاً حباً أصغر ، كل ذلك يصوغهما شخصاً واحداً .

حتى إذا لم يبق فى البيت الذى كان يردد رنين ضحكات الأطفال إلا ذكراهم الصامتة ، أظل الحب وكأنه يعزى الزوجين بجناحيه رفيقى العمر الطويل. ذلك أن أنشودة الحب لا تبلغ تمامها حتى تسرى بنغمتها الحارة وحدة العمر واقتراب « العدو الأكبر » . والذين عرفوا الحب على أنه رغبة لم يعرفوا منه إلا جذوره وجسده ، أما روحه فهى الباقية الآن وقد تبدد كل عنصر جسمانى . وفى هذا التآلف الجديد بين القلبين القديمين يبلغ الازدهار الروحى لجوع البدن التمام .

فهذه هى دورة الحب . ولنتأمل هذه الدورة مرة أخرى فى لمحة واحدة ... فى خلايا البروتوزوا المندمجة ، وفى شهوة الحيوان العنيفة ، وفى غلمة الهمجى الغليظة ، وفى عيون الشباب الحالمة الذائبة ، وفى قصائد إليزابيث بروننج أو قصة فرنشسكا ، وفى الرفيقين العجوزين وهما يرتعشان سعادة كلما تجمع أبناؤهما وأحفادهما لإحياء ذكرى نصف قرن من الحب . أهناك أغرب من هذا التحول ، هذا التسامى البطىء من مغناطيسية العناصر إلى أناشيد الهيام والإخلاص لجميع ميادين الحياة ؟ وإنا لنذكر فى هذا المقام كلمات سنتايانا العميقة التى يقول فيها : « لكل شىء مثالى أساس طبيعى ، ولكل شىء طبيعى نماء مثالى » . فقل للحب : لا تخجل من أصلك ، وللرغبة أن تذل إذا لم تسم إلى مراتب العبادة.

لقد كان حب الفلسفة هو الذى ساق أفلاطون إلى أن يقول : « إن الذى تمسه نار الحب يمشى فى الظـــلام »(١) . ولام لابلاس عندما حضرته الوفاة أصدقاءه الذين أرادوا تعزيته بشهرة كتبه واكتشافاته ، فقال لهم آسفاً : إن هذه الأمور ليست أهم شىء فى الحياة ، فسألوه : « وماذا إذن ؟ » وأجابهم العالم الشيخ وهو فى النزع الأخير : « الحب » .

---

(١) المأدبة ، ١٩٧ .

فكل شيء إلى موت، ما عدا الحب الذى يهرب وحده من الفناء . ذلك أنه يتخطى القبور ، ويسد ثغرات الموت بالتوليد . وما أقصر ما يبدو الحب فى مرارة الحقيقة البعيدة عن الأوهام ، ومع ذلك فما أدومه إذا نظرنا إليه من خلال البشرية . . . وكيف ينقذ بضعة منا آخر الأمر من الهلاك ، فيحتفظ بحياتنا مجددة فى شباب الطفل وقوته . ونحن قد نمـــل الثروة ، وقد تكون حكمتنا بصيصاً من النور لا يبعث حرارة ، ولكن الحب يدفىء القلب بسلوان لا يمكن التعبير عنه ، ويزداد دفء القلب إذا كان عاشقاً لا معشوقاً .